﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين الإخبارِ بعذاب قومِ لوطٍ، وبيانِ أسبابِ النّجاةِ وشروطِها

لمّا أخبرتِ الملائكةُ لوطًا بوقوعِ العذابِ بقومِه أمَروه بما يكونُ سببًا في إنجائه هو وأهلُه، فجاءتِ الآيةُ للشّروع في ترتيب مبادئِ النّجاةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسۡرِ﴾: السُّرى: اسْمُ مَصْدَرٍ لِلسَّيْرِ في اللَّيْلِ، يُقال: سَرَيْت سُرًى ومَسْرًى وأسْرَيْت بمعنًى إذا سِرْت ليلًا. ويُقالُ: سَرَيْنا سَرْيَةً واحِدَةً، والاسْمُ السُّرْيَةُ، بِالضَّمِّ، والسُّرَى وأسْراهُ وأسْرَى بِهِ[2]. والسَّرّاءُ: الكثيرُ السُّرى باللَّيلِ، والسِّرايةُ: سُرَى اللَّيْلِ، والسّاريةُ: القومُ يسرون، السّارية أيضًا: الأسطوانةُ، والسَّحابةُ الَّتي تمرُّ ليلًا[3]. والمقصودُ بالسُّرى في الآية: السَّيْرُ في اللَّيْلِ إلى الصَّباحِ.

2) ﴿بِقِطۡعٖ﴾: أصلُ (قطع): أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على صَرْمٍ وإبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيْءٍ. يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ. يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارَما[4]. والقِطْعُ والقِطْعَةُ والقَطيعُ والقِطَعُ والقِطاعُ: طائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ تَكونُ مِنْ أوّله إلى ثُلُثِه، وقيلَ للفزاريِّ: ما القِطْعُ مِنَ اللَّيْلِ؟ فقالَ: حُزْمَةٌ تَهورُها، أي: قِطْعةٌ تَحْزُرُها ولا تَدْري كَمْ هِيَ. والقِطْعُ: ظُلْمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ. والقِطْعُ أيضًا:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سرى).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

اسْمُ ما قُطِعَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ قَطْعًا[1]. والجميعُ قُطْعانٌ وقِطَعٌ وأقْطاع[2]. والمقصودُ بالقِطْعِ في الآية: الجُزْءُ الأخيرُ مِنَ اللَّيْلِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ بترتيبِ مبادئِ النَّجاةِ، لِلوطٍ وآلِه، قبل حُلولِ العذابِ بقومِه

قالتِ الملائكةُ: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِنَ اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسْراك، وكنْ - يا لوطُ - مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم، ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عنِ القريةِ، وتَنجوا مِنَ العذابِ النّازلِ بأهلِها، واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمُضيِّ إليه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

من لَطائفِ الآيةِ الكريمةِ:

الإرشـادُ إلى اتِّباعِ الأدبِ، بين التّابعِ والمتْبوعِ

الآيةُ وإن كانت خاصَّةً بلوطٍ عليه السلام وأهلِه الّذين اتّبعوه، لكنَّها اشتملت مع وَجازتِها على آدابِ المُسافرين في دينٍ ودُنيا، من أميرٍ ومأمورٍ، وتابعٍ ومتبوعٍ، وتضمّنت ثلاثةَ أوامرَ ونهيًا لتحقيقِ نجاةِ لوطٍ وأهلِه[5].

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَسۡرِ﴾:

صِـدْقُ وعْـدِ الرُّسل، موجِبٌ لاتِّباعِ أوامرِهم

تحتملُ الفاءُ أن تكونَ عاطفةً، لتفيدَ ترتّبَ الأمر بالخروج ليلًا على تيقُّنِ الأمر وصدْقِ الوعدِ وإعلامِ لوطٍ عليه السلام به، ولتفيدَ المبادرةَ بالشّروعِ في أسبابِ النّجاة، وتحتملُ أن تكونَ الفاءَ الفصيحةَ، لتكون جوابَ شرطٍ مقدّرٍ منَ السّياق، بمعنى إذا تيقّن ذلك عندك فأسرِ[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).

(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قطع).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541.

(5) ابن المنير، حاشية على الكشاف: 2/584.

(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

قيادةُ الرُّسُلِ للخروج بالمؤمنين، مَنْجاةٌ لهم في كلّ حينٍ

نُكتةُ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿فَأَسْرِ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿فَأَسْرِ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الأمرَ بالخروج منَ البلدة يكونُ في اللّيل، والمعنى: فاذهب بهم في اللّيل، ولم يقل: (فاذهب أنت وأهلك) مع أنّه مرادٌ منَ المعنى؛ لأنَّ التّعبير بـ﴿فَأَسْرِ﴾ يفيدُ أنَّ لوطًا هو الذي يقومُ بالأمر وأنَّ أهلَه تبعٌ له في أمرِه، ويُؤَيِّدُهُ تضمينُ الباء معنى (مع) كما يأتي[1].

التّعْدِيةُ ومعنَى (مع) في سياقِ الآيةِ

دَلالةُ (الباء) في قولِه: ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

تفيدُ الباءُ تعْدِيةَ الفعل إلى ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وفيها معنى اسطحابِ الأهل، فتكونُ الباءُ مضمّنةً معنى (مع).

مصاحبةُ الأهلِ في الهجرة، تُهوّنُ عَناءَ السَّفرِ

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

لمّا كان الجارُّ والمجرور في موضع نصبٍ على الحال، أفاد تقييدَ إسراءِ لوطٍ عليه السلام وخروجِه من قومِه، بكونِه في حالِ اسطحابِ أهلِه معه، ومصاحبةُ الأهل وذوي الإيمان، تُهوّن كثيرًا من وعْثاءِ السّفر.

الاجتماعُ على الدّينِ والحقِّ، رحِمٌ معنويّةٌ، بمثابةِ الأهلِ في النّسبِ

لُطفُ التّعْبير بلفْظِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

في التّعبيرِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إشعارٌ باللّفظِ المُهذَّبِ الذي يُستعملُ في الدّلالةِ على صُحْبة النّساء والأبناءِ[2]، ولمّا كان الأصلُ في (أهل الرجل) أن يقال لمن يجمَعُه وإيّاهم نسبٌ كان التّعبيرُ بالأهل هنا إشارةً إلى أنَّ الاجتماع على الدّين والحقِّ بمثابة الأهل في النّسبِ.

على القائدِ أن يهتمَّ بالتّابعين له، باعتبارِهم أقرباءَه وأهلَه

فائدةُ الإضافةِ، في قوله ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

لمّا أضاف الأهلَ إلى لوطٍ عليه السلام، أفادَتِ الإضافةُ اختصاصَهم به، وأنَّ حكمَهم تابعٌ لِحكمِه، وأنَّ عليه رعايتَهم والاهتمامَ بهم كما يهتمُّ الرّجل بأهلِه، كما أنَّ في الإضافة إلى لوطٍ بصيغةِ المخاطَبِ تشريفًا للمؤمنين الّذين اتّبعوه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراويّ: 13/7733.

الهلاكُ مؤقّتٌ بميقاتِه المُعيَّن، والحوادثُ قد يَطرقْنَ أسحارًا

أهمّيّةُ الحالِ، باعتبارِه قيدًا لعاملِه، بمثابةِ الشّرطِ له

دَلالةُ التّبْعِيضِ على بعضِ الوقتِ منَ اللّيل

المُبادرةُ إلى الإسراعِ بالخروجِ، عندَ وقوعِ العذابِ، لضمانِ النّجاة منَ الاستئصال

المُبالغةُ في سَوقِهم، في مدلولِ السّياقِ

فائِدةُ (الباء)، في قولِه ﴿بِقِطۡعٖ﴾:

تفيدُ الباءُ الملاصَقةَ بمعنى لصوقِ خروجِهم ليلًا بطائفةٍ منه؛ ليفيدَ أن يكون وقتُ خروجِهم ملاصِقًا لطائفةٍ منَ اللّيل.

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الجارُّ والمجرور ﴿بِقِطۡعٖ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ أفاد الكلام أنْ يكونَ سيرُ لوطٍ ﷺ مع أهلِه في حالِ مصاحبتِهم لقطعٍ منَ الليل غيرَ مفارقين له حين السّير، إلى أن يصلوا إلى حيثُ يُؤمرون.

فائِدةُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

تفيدُ ﴿مِّنَ﴾ التَّبعيضَ بمعنى أن يكونَ القِطْعُ جزءًا من اللّيل، ليفيدَ أنَّ سيرَهم لم يشتملْ على اللّيل كلِّه، بل كان في جزءٍ منَ اللّيل.

نُكتةُ التَّعبيرِ بتركيبِ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الإسراءُ لا يكونُ إلّا في ليلٍ، وكان المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ طائفةً منَ اللّيل وجُزءًا منه كان الكلامُ على معنى تأكيدِ الخروجِ في اللّيل[1]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ شدَّةَ الظّلام، فيكونَ الأمرُ بالخروج في سواد اللّيل أو في آخره وليس في أيِّ جزءٍ منَ اللّيل، فيكونَ قولُه ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تأسيسًا في المعنى، وعلى كلا الوجهَين أفاد التَّعبيرُ بلفظِ ﴿بِقِطۡعٖ﴾ أن يكونَ السّيرُ في جُزءٍ منه، أي أن لا يشتملَ السّيرُ على اللّيل كلِّه، بل على بعضِه، ففيه إشعارٌ بالمبادرةِ إلى الإسراعِ في السّير وعدمِ التّباطؤ[2].

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

سببُ إيثارِ لَفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على السّوقِ مع أنَّه المقصودُ بالأمر؛ للمبالغة في المعنى؛ إذِ السّوقُ ربّما يكونُ بالتّقدُّم على بعضٍ مع التّأخّرِ عن بعضٍ، ويلزمُه عادةً الغفلةُ عن حال المتأخِّر، كما يلزمُه

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/47.

الالتفاتُ في حالِ التّقدّم، وقد نُهيَ عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ﴾[1].

دَلالةُ صيغةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

أمرُ الله حكمةٌ ورشادٌ، والتزامٌ بأمرِه وسَدادٌ

لمّا كان لفظُ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على صيغةِ (افتعل)، دلَّ على الأمرِ بالاجتهاد، في اتّباعِهم وأن يكونَ على إثرِهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾:

إفـــادةُ عـــدمِ تـخـلّـفِ واحـدٍ مـنـهـم، حـرصًا على سلامةِ أهلِه

أفاد الأمرُ باتّباع الأدبارِ لازمَ المعنى وهو أن يُقَدِّمَهُمْ جميعًا أمامَه، فلا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ويدلُّ هذا المعنى بملزومه على أنَّه يكونُ ناظرًا إليهم وأنَّه أقربُ إلى محلِّ العذاب منهم لأنَّه أثبتُهم قلبًا وأعرفُهم باللّه، والدّلالةُ على شدّة حرصِه على سلامتهم، ولازمُ المعنى وملزومُه مقصودان؛ لتلازمِهما وجودًا وعدَمًا.

سِرُّ العطْفِ في جملةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الحِرصُ على مَنْ أمـامَـه، وعـدمُ الانشغالِ بمَنْ خلفَه

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، ومنه قد يقال: ما معنى أمرِه باتّباع أدبارهم ونَهْيِهم عنِ الالتفات، وعطفِه على ﴿فَأَسۡرِ﴾، وكان يكفي في الهجرة أن يُقال: (فَأسْرِ بِأهْلِكَ) فما معنى التّتميم بالقيدَيْن ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾؟ والجوابُ هو أنَّه أُمِرَ بأن يُقَدِّمَهُم؛ لئلّا يشتغلَ بمَن خلفَه قلبُه، وليكونَ مطّلعًا عليهم وعلى أحوالِهم، فلا يصدرُ منهم هفوةٌ ولا ما يُلامون عليه احتشامًا منه ومهابةً له ولا تفرطُ منهمُ الْتفاتةٌ في تلك الحال المَهولةِ المحذورة، ولئلّا يتخلَّفَ منهم أحدٌ، لغرضٍ له فيصيبَه العذابُ، وليكون مسيرُه مسيرَ الهارب الذي يقدّم سربَه ويفوتُ به، ولمّا كان المرادُ من اتّباع أدبارِ قومِه اتّباعَ ظُهورِهِمْ أفادَ أنَّه يكونُ كالحائلِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ العَذابِ الَّذي يَحِلُّ بِقَوْمِهِ بِعَقِبِ خُروجِهِ تَنْويهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/321.

بِبَرَكَةِ الرَّسولِ ﷺ، ولأنَّهُمْ أمروهُ أنْ لا يَلْتَفِتَ أحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ إلى دِيارِ قَوْمِهِمْ لِأنَّ الْعَذابَ يَكونُ قَدْ نَزَلَ بِدِيارِهِمْ. فبِكَوْنِهِ وَراءَ أَهْلِهِ يَخافونَ الِالْتِفاتَ لِأنَّهُ يُراقِبُهُمْ[1].

بَلاغةُ عدمِ الالتفاتِ في الآية:

المُرادُ بالالتفاتِ النّظرُ بالعين، أوِ الإسراعُ وعدمُ التّواني

يحتملُ أن يكونَ النّهيُ عنِ الالتفات على الحقيقة، وله وجهان، فإمّا أنْ يكونَ على مقتضى الظّاهر، فهو منَ الالتفات الذي يكونُ بنظر العين، فيكونُ بمعنى الصّرف عنِ الجهة المستقيمةِ والعُدول بالوجهِ، فيرى ما وراءَه منَ الهول فلا يطيقُه أو يصيبُه ما أصابهم، وإمّا أن يكونَ كنايةً عنِ الإسراع في السّيرِ ومواصلته وتركِ التَّواني والتوقُّفِ، فإنَّ مَنْ يتلفَّتُ قلَّما يَخلو عن أدنى وقفةٍ، ويحتملُ أن يكونَ على طريق المجاز بالاستعارةِ، بتشبيهِ الانصراف عن جمْعِ آل لوطٍ والتّخلّفِ عنهم بالعُدولِ عنِ الجهة المستقيمةِ، ووجهُ الشّبه هو الضّياعُ والتّيهُ عنِ الصّواب، فيلحقُه الأذَى، والمعنى: ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلّفْ لغرضٍ، فيصيبَه العذابُ، كَما أنَّ الالتفاتَ إلى القومِ عندَ الخروجِ من بلدتِهم يُشعرُ بمحبَّتِهم والرّغبةِ بعدم مفارقتهم فيتخلّفُ عندهم، ففيه نهيٌ عن ربطِ القلبِ بما خلَّفوه وراءَهم، وقيل نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسَهم على المُهاجَرة، فإنّ النّظرَ إلى الأوطان يُهيّج التَّحَسُّرَ والتّحزُّنَ على مفارقتِها[2]، وقال الفخرُ الرازي: "قَوْلُهُ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ الفائِدَةُ فيه أشْياءُ أحَدُها: لِئَلّا يَتَخَلَّفَ مِنْكُمْ أحَدٌ فيَنالُه العَذابُ، وثانيها: لِئَلّا يَرَى عَظيمَ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ البَلاءِ، وثالِثُها: مَعْنَهُ الإسْراعُ وَتَرْكُ الاهْتِمامِ لِما خَلَّفَ وَراءَهُ كَما تَقولُ: امْضِ لِشَأْنِكَ وَلا تُعَرِّجْ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/583، والطيبي، فتوح الغيب: 9/50، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/548، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

عَلَى شَيۡءٖ. ورابِعُها: لَوۡ بَقِيَ مِنۡهُ مَتاعٌ في ذلك المَوۡضِعِ، فَلا يَرۡجِعَنَّ بِسَبَبِهِ أَلۡبَتَّةَ[1].

سِرُّ توسُّطِ النّهي في الآية:

مَن يواصلُ السّيرَ، يُتَوقَّعُ منه الالتفاتُ

لمّا أمر الله لوطًا بالسّيرِ ليلًا بأهلِه وأمره بأنْ يتّبع أدبارَ قومِه وردَ النّهيُ عن أن يلتفتَ منهم أحدٌ؛ لأنَّ توقُّعَ الالتفات لا يكونُ إلّا بعد مواصلةِ السّير، كما أنَّ معرفةَ من يلتفتُ إنّما تكون إذا كان سائقُ القومِ خلفَهم، ولهذا جاء النّهيُ بعد قولِه: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، ثمّ أمرهم مواصلة بمواصلة السّير وعدمِ التّوقُّفِ في قولِه ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ مع التزامهم بالنّهيِ عنِ الالتفات.

بَلاغةُ تَقۡديم ﴿مِنكُمۡ﴾ على ﴿أَحَدٌ﴾:

التّركيزُ على المُؤمنين الخارجين، وتحصينِهم من أسبابِ الهلاكِ

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور، الاهتمامَ والعناية، بمن يخرجُ من بلدة قومِ لوطٍ؛ لأنَّ محطَّ النّظر عليهم.

فائِدةُ (مِنۡ) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾:

(مِنۡ) هنا ابتدائيّةٌ بمعنى لا يكنۡ ابتداءُ الالتفات، من أيِّ أحدٍ من أتباعِك، وتحتملُ أن تكون للتّبعيض، بمعنًى: لا يلتفتۡ بعضُكم ليشملَ الفردَ والمجموعةَ.

النّجاةُ في الحياةِ، مَشروطةٌ بعدمِ الإلتفات الالتفاتِ

فائِدةُ مجيءِ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً:

عمومُ أهلِ لوطٍ عليه السلام، مقصودون كافّةً بالخطابِ

لمّا جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً في سياق النّفيِ أفاد العمومَ لجميع أهلِ لوطٍ[2]، فيكونُ النّهيُ عنِ الالتفات للفردِ منهم وللمجموع، ولو قال (ولا تلتفتوا) لأفادَ أنَّ النَّهيَ عنِ الالتفات للمجموع بأنۡ يلتفتوا جميعًا، وليس هذا هو المرادَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱمۡضُواْ﴾:

لمّا كان المرادُ من لوطٍ وأهلِه السّيرَ في اللّيل مع إنفاذِ الأمر وإنجازِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184.

المُـضيُّ يُـعـبِّرُ عـنِ الـذَّهـابِ، بعزيمةٍ قويّةٍ دونَ انثناءٍ

بقوَّةٍ كما يمضي السّيفُ أي ينفذُ في جسم الضّريبة، ويكونُ من غيرِ انثناءٍ ولا تعريجٍ[1]، ولمّا تعلَّق الفعلُ بالأمرِ في قولِه ﴿حَيْثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ ناسبَه التّعبيرُ بلفظِ المضيّ دون أن يقول: (واذهبوا حيث تؤمرون) للإيذانِ بطلب الذّهاب قُدُمًا من غيرِ انثناءٍ، مع تحقيق نفاذِ الأمر بقوَّةٍ، ولهذا تعلَّق الفعلُ والمعنَى: اذهبوا إلى المكان الذي تُؤمرون بالذّهاب إليه وأنفذوا أمرَ الذّهاب إلى هنالك بعزم، كما أنَّ في إيثارِ المضيِّ إلى ما ذكرَ على الوصول إليه واللُّحوقِ به إيذانًا بأهمّيّةِ النَّجاةِ ومراعاةً لِلمناسبةِ في المعنى بينه وبين ما سلفَ منَ الغابرين[2].

دَلالةُ حذْفِ حرفِ الجرّ في الآية:

التّـنـبـيـهُ إلى الإسـراعِ، وأثرُه في الالـتـزامِ والاتّباعِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، وفيه أنّ أصلَ الكلام (وامضوا إلى حيث تؤمرون بالمضيّ إليه)، وحُذفَ حرفُ الجرِّ (إلى) على الاتساع، و﴿حَيۡثُ﴾ هنا اسمُ ظرفٍ بمعنى المكان[3]، ونكتةُ حذْفِ حرف الجرِّ التَّنبيهُ إلى الإسراع في الوصول إلى المكان المقصودِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿حَيۡثُ﴾:

قد يكونُ المكانُ مُبهَمًا، وفيه الخيرُ، ما دام الآمرُ هو الله

لمّا كانَ ﴿حَيۡثُ﴾ منَ الظّروف المُبهمةِ في المكان، وجاء هنا بمعنى المكان أفاد التّنبيهَ على الائتمار بأمر اللّه تعالى وإن كان المكانُ الذي يذهبون إليه مبهمًا عندَهم أوّلَ الأمر، وفيه إشعارٌ بأنَّ على المؤمنين أن يذهبوا حيثما أمرهم اللّه.

بَلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

إفادةُ اتِّصافِهم بـالاسـتـجـابـةِ لأوامرِ الله كلِّها

عُدّي ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى الضّمير المحذوفِ على الاتّساع، وأصل الكلام: (تؤمرون فيه) إن كان الضّميرُ المحذوفُ راجعًا إلى ﴿حَيۡثُ﴾، أي: وامضوا حيث تؤمرون في المكان الذي تَمضون فيه،

(1) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مضى)، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/230.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/185.

أو (تؤمرون به) إن كان الضّميرُ راجعًا إلى المصدر المفهومِ من ﴿وَٱمۡضُواْ﴾، أي: وامضوا حيث تُؤمرون بالمضيِّ إليه[1] فحذف حرفَ الجرِّ واتّصل الضّميرُ بالفعل ثمَّ حُذفَ لإفادة اتّصافِهم بفعل الائتمارِ والامتثال، فأيُّ أمرٍ يأتيهم منَ الله تعالى يأتمرون به.

نُكتةُ الفعلِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

أمرُ الله مُلزمٌ، على أيّ طريقٍ أتاك

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول، وجوبَ ائتمارِهم بأمرِ الله، سواءٌ جاء الأمرُ عن طريق الملائكة المرسَلين، أم عن طريق الوحْيِ.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

صُحْبَتُهم بالأوامرِ الإلهيَّةِ، مدَّةَ سيْرِهم، لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ

تعبيرُه بصيغةِ المضارع، يُشعرُ بأنَّه يكونُ معهم بعضُ الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[2]، عندَ مواصلةِ السّيرِ إلى انتهاءِ سيرِهم، أو لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ بأنَّ الله تعالى ناظرٌ إليهم نظرَ عنايةٍ، وأنَّه يُسيّرُهم بأوامرِه، إلى حيثُ سلامتُهم وأمنُهم.

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفظيِّ في الآيَة:

القصّةُ واحدةٌ، وتصويرُ زَوايا المَشاهدِ، تختلفُ من سورةٍ إلى أخرى

جاء في سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، وفي سورة الحجر ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، فجاء في آية هود الاستثناءُ في قولِه ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81] ولم يردْ في آية الحجرِ، وجاء في آية الحجر: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ ولم يأتِ في آية هود، فأمّا توجيهُ عدم وقوعِ الاستثناءِ في سورة الحجر فهو أنَّه أغنَى عنه قولُه تعالى فيما حكى عنِ الرُّسلِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/195، والطيبي، فتوح الغيب: 9/52، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.

فهذا الاستثناءُ الذي لم يقع مثلُه في سورة هودٍ أغنَى عنِ الاستثناءِ في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، وأمّا توجيهُ ورودِ: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ فهو أنَّه لّما قال اللّٰه تعالى في سورة الحجر حكايةً عنِ الملائكة قولَهم لإبراهيم ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أخبر عن مخاطبتِهم لوطًا في هذه السّورة بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ ﷺ، فأردفوا قولَهم له: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ بقولهم: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لأنَّه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان تحقيقا لخبرِهم أنّهم مُنجّوهم أجمعين، وكان على علمٍ بنجاتِهم، فتتوافقُ مُخاطبتُهم له مع مُخاطبتِهم لإبراهيم ﷺ[1].

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿فَأَسۡرِ﴾:

سرى وأسرى لَـهْـجَـتـان فَـصيـحَـتـان، في استعمالِ العربِ

قَرَأ أبو جعفر ونافعٌ وابْنُ كَثِيرٍ (فاسْرِ) بوصل الألف من سرى يسري، وقرأ الباقون ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الألف، من أسريت، وهما لهجتان فصيحتان نزل بهما القرآن، وتوجيهُ القراءة بوصل الألف أنْ يكون المرادُ سرى في أوّل اللّيل، وأمّا قراءةُ ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الألف فتكون على معنى أسرى من آخر اللّيل[2]، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّهما بمعنى واحد وهو السّيرُ في اللّيل[3]، فيكونُ الاختلافُ في القراءتين على معنى التّخفيفِ الصّوتيّ في الوصلِ وتحقيقِ المعنى على قراءة القطعِ.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُضِّي والذّهابُ:

المُـضيُّ هـو الذّهابُ لغايةٍ، قُـدُمًـا مـن غيرِ انثناءٍ، وقد آثَرَه السّياقُ

تقدَّم الفرقَ بين اللّفظَين عند الكلامِ على نكتةِ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱمۡضُواْ﴾.

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 148، والإسكافي، درة التنزيل: 2/770.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 338، والأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن الجزري، النشر: 2/111.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.

الدّابرُ يخلُفُ كلَّ من تقدَّمَه، والآخـرُ خلافُ الأوّلِ

الدّابرُ والآخرُ:

الدّابرُ منَ الدُّبُرِ وهو خلافُ القُبُلِ، والإدبار خلافُ الإقبالِ، ويكنَّى بالدُّبُرِ عنِ الظّهر، وعن آخر الشّيء ونهايتِه وخلفِه، وأمّا الآخرُ فهو من أخَرَ، وهو خلافُ التّقدّم، والآخرُ يقابلُ به الأوّل، فلمّا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أفاد الأمرَ باتّباع ظهورِ الجميعِ، ولو قال: (واتّبع أواخرَهم) لاقتصرَ على اتّباع الجمعِ المقابلِ للمُتقدّمين، فلا يكونُ الاتّباعُ شاملًا للجميع.